الهروب الى الله

بقلم ستيفان زفايغ
ترجمة ابو العيد دودو

نهاية اكتوبر ١٩١٠

خاتمة لمسرحية تولستوي
« والنور يسطع في الظلام »

في سنة ١٨٩٠ بدأ ليو تولستوي بكتابة ترجمة درامائية لحياته، اتيح لها فيما بعد ان تنشر وتعرض على الشاشة كقطعة من مخلفاته تحت عنوان « والنور يسطع في الظلام » . هذه الدراما الناقصة ليست (والمشهد الاول ينم عن ذلك سلفا) سوى تشخيص لجوهر مأساته المنزلية ، وواضح انها كتبت كتبرير لمحاولة الهروب المبيتة واعتذار لزوجته في الوقت نفسه ، بمعنى عمل موازنة خلقية في غمرة التمزق الروحي الرهيب .

ان تولستوي نفسه قد تقمص شخصية نيكولاي ميشيلايفتش سارنتسيف المعبرة عنه في شفافية . وأقل ما في المأساة يمكن ان يعتبر موضوعا . ولا شك ان تولستوي لم يبدعها الا لينظم سلفا الحل الحتمي لحياته ، غير ان تولستوي لم يجد جراة وصيغة القرار والختام لا في الاثر ولا في الحياة ، لا في ذلك الحين ، ١٨٩٠ ، ولا بعد عشر سنوات ، ١٩٠٠ . فبسبب خضوع الارادة واستسلامها ظلت المسرحية قطعة ناقصة ، تنتهي بحيرة تامة تستحوذ على البطل فيرفع يديه الى الله ويتوسل اليه ان يساعده وينهي صراعه .

ولم يكتب تولستوي الفصل الاخير من المسرحية فيما بعد ايضا ، ولكن الاهم : لقد عاشه . ففي الايام الاخيرة من اكتوبر سنة ١٩١٠ تتمخض رجة ربع قرن عن قرار ، عن ازمة تحرير : بعد اصطدام درامائي عنيف يهرب تولستوي في الوقت المناسب ليجد ذلك الموت المثالي الرائع الذي يمنح مصيره القداسة والشكل النهائي .

والان لم يبد لي شيء انسب من ان اضيف النهاية المعاشة الى المأساة . لقد حاولت هذا ، وهذا وحده ، بكل أمانة وصدق واخلاص للحقائق والوثائق التاريخية . ولست اتجاسر بذلك على الادعاء باني اريد ان اتمم عقيدة لتولستوي واتحكم فيها بصورة مكافئة ، انني لا انضم الى الاثر ، وانما اريد ان اخدمه . ولهذا لا ينبغي ان يعتبر ما احاوله هنا كتكملة ، بل كخاتمة مستقلة لاثر ناقص ونزاع قائم ، ولست اريد بذلك الا اعطاء تلك المأساة الناقصة مخرجا صحيحا .

ولاجل ان تكون هذه الخاتمة جديرة بالعرض يجب ان اؤكد هنا انها تقع ، من حيث الزمن ، متاخرة عن « والنور يسطع في الظلام » بست عشرة سنة ، فمن الضروري اذن ان يظهر ذلك على ليو تولستوي عند دخوله الى المسرح . ويمكن ان تتخذ كمثل صوره الجميلة التي اخذت له في سنواته الاخيرة ، وخاصة تلك الصورة التي تظهره عند اخته في دير شمردينو ، ثم صورته وهو على فراش الموت . وكذلك ينبغي ان يرسم المكتب بكل بساطته المؤثرة طبقا لما هو معروف وثابت تاريخيا . واود ، من اجل المشهد التمثيلي فحسب ، ان تضم هذه الخاتمة (التي تذكر تولستوي باسمه الصريح ، ولم تخفه خلف هيئة سارنتسيف المستعارة) الى الفصل الرابع من القطعة بعد استراحة كبيرة . وليس في نيتي تقديمها في عرض مستقل .

اشخاص الخاتمة :

ليو نيكولايفتش تولستوي (في ٨٣ من عمره) .
صوفيا اندرييفنا تولستوي ، زوجته .
الكسندرا لفوفنا (تدعى ساشا) ، ابنته .
الكاتب .
دوشان بتروفتش ، طبيب تولستوي وصديقه .
ناظر محطة استابوفو ، ايفان ايفانوفتش اوسولنغ .
رئيس شرطة استابوفو ، سيريل غريغوزوفتش .
الطالب الاول .
الطالب الثاني .
ثلاثة مسافرين .

تقع حوادث المشهدين الاول والثاني في الايام الاخيرة من شهر اكتوبر سنة ١٩١٠ في مكتب ياسنايا بوليانا ، والمشهد الاخير في ٣١ اكتوبر سنة ١٩١٠ في غرفة الانتظار بمحطة استابوفو .

ـ المشهد الاول ـ
نهاية اكتوبر ١٩١٠ في ياسنايا بوليانا

مكتب تولستوي على بساطته وخلوه من الزينة ، يشبه اللوحة المعروفة تماما .

(يدخل الكاتب طالبين ، يرتدي كل منهما قميصا اسود مزرورا على النمط الروسي . الاثنان شابان ذوا وجهين حادين . يتحركان في اطمئنان تام ، في تكبر اكثر منه خوف) .

الكاتب : استريحا في غضون ذلك ، فان ليو تولستوي لن يدعكما تنتظران طويلا . وكل ما ارجوه منكما هو ان تفكرا في كبر سنه . انه مغرم بالمناقشة الى درجة انه كثيرا ما ينسى تعبه .

الطالب الاول : ليست لدينا اسئلة كثيرة نوجهها الى ليو تولستوي ـ سؤال واحد فقط ، طبعا سؤال حاسم لنا أو له . وأعداك باني سأوجز كلامي ـ ان جاز لنا ان نتكلم بحرية !

الكاتب : لكما تمام الحرية . وكلما قلت الصيغ كان ذلك افضل . ولا تخاطباه قبل كل شيء بلقب حضرة ـ انه لا يريد ذلك .

الطالب الاول : لا تخش منا هذا ، كل شيء الا هذا .

الكاتب : ها هوذا يصعد الدرج !

(يدخل تولستوي بخطى سريعة متزنة . يبدو ، رغم كبر سنه ، نشيطا عصبيا . وحين يتكلم غالبا ما يدير قلما في يده او يلف ورقة ، جزعا ألا يكون دوره في الحديث قد جاء . يتقدم من الاثنين بسرعة ويصافحهما وهو ينظر الى كل منهما نظرة حادة نافذة . ثم يجلس

قبالتهما فوق كرسي كبير مشمع) .

تولستوي : انتما اللذان أرسلتهما اللجنة الي ، أليس كذلك ؟..
(يبحث في رسالة) . اعذراني ان كنت قد نسيت اسميكما ...

الطالب الاول : اننا نرجوك ألا تقيم لاسمينا وزنا . فما جئنـــاك الا كاثنين من مئات الآلاف .

تولستوي : (ناظرا اليه في حدة) هل لديك سؤال توجهه الي ؟

الطالب الاول : سؤال واحد .

تولستوي : (للثاني) وانت ؟

الطالب الثاني : نفس السؤال . لـــدينا جميعا ســؤال واحد نوجهه اليك ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ، نحن جميعا ، كل شبـاب روسيا الثوري ـ ليس هناك غيره : لماذا انت لست معنا ؟

تولستوي : (بكل هدوء) لقد شرحت ذلك ، كما آمل ، شرحـا واضحا في كتبي وزيادة على ذلك في بعض رسائلي التي نشرت فيمـا بعد . ـ لست أدري هل قرأتما شخصيا كتبي ؟!

الطالب الاول : (منفعلا) هل قرأنا كتبك ، يا ليو تولستوي ؟! يا له من سؤال غريب ! قرأنا ـ اذا لكان ذاك أقل ما يكون . لقد كنـا نعيش من كتبك منذ طفولتنا ، وحين صرنا شبانا أيقظت قلوبنـا في صدورنا . فمن علمنا اذا ، اذا لم تكـــن انت ، ان نرى هذا التقسيم الجائر لخيرات الانسان كلها ؟ كتبك ، هي وحدها التي نفرت قلوبنـا من الدولة والكنيسة والحاكم الذي يدافع عن ظلم الانسان عوض حماية الانسان . انت ، انت وحدك الذي رسمت لنا ان نضحي بحياتنـا كلها الى ان يتحطم هذا النظام الفاسد بصورة نهائية .

تولستوي : (يقاطعه قائلا) ولكن لا عن طريق استعمال العنف ..

الطالب الاول : (متجاهلا كلامه في وقاحة) اننا ، منذ ان تكلمنا لغتنا ، لم نثق بأحد مثل ثقتنا بك . وحين تساءلنا ، من سيزيل هذا الظلم ، قلنا لانفسنا : هو ! وحين تساءلنا ، من سينهض يوما ويطوح بهذه الدناءة ، قلنا : هو سيفعـــل ذلك ، ليو تولستوي . لقد كنـا تلاميذك ، خدمك وعبيدك . أعتقد انني كنت آنئذ مستعدا ان أمـوت بإشارة من يدك . ولو اتيح لي قبـــل سنوات ان أدخل هذا البيت لانحنيت أمامك كما أنحني امام قديس . هكذا كنت لنا يا ليو تولستوي ، لمئات الالاف منا ، للشباب الروسي بأكمله ، الى ما قبل سنوات قليلة . وأيا كان الامر ، فاني آتأسف ، نحن جميعا نتأسف لكونك ابتعدت عنـا منذ ذلك الحين وكدت تصير عدونا .

تولستوي : (أهدأ) وماذا تعني ، هل كان علي ان اعمل لاظـل مرتبطا بكم ؟

الطالب الاول : لست أجرؤ على تعليمك . فأنت نفسك تعـــلم ما الذي أبعدك عنا ، نحن الشباب الروسي بأجمعه .

الطالب الثاني : لم لا نصرح بذلك الان ؟ ان قضيتنا اهم بكثير من المجاملات : يجب عليك اخيرا ان تفتح عينيك وألا تظل خامدا ، مدة اطول ، تجاه الجرائم الفظيعة التي ترتكبها الحكومة ضد شعبنا . يجب عليك اخيرا ان تغادر مكتبك لتقف بجانب الثورة وتساندها علنا ودونما سند . انك تعـــلم ، يا ليو تولستوي ، بأية قسوة وضراوة أخمدت حركتنا . ان عدد الذين يتعفنون الان في السجون يفوق عدد اوراق بستناك . وانت ، انت ترى كل هذا ، وتكتب ، كما يقـال ، بين حـين وآخر ، مقالا ما في جريدة انكليزية تتحدث فيه عن قداسة الحيـاة الانسانية . لكنك ، انت نفسك ، تعلم علم اليقين ان الكلمات لم تعد اليوم تقف ضد هذا الارهاب الدامي . انك تعلم تماما مثلما نعلم نحن انه لا بد من انقلاب جذري ، من ثورة عارمة شاملة . وفي وسع كلمة واحدة منك ان تعد ، وحدها ، للثورة جيشا بأكمله . لقد جعلت منـا ثوارا . والان ، اذ دنت ساعة الثورة ، تراجعت عن موقفك وانحرفت في حذر ، وبذلك أصبحت تساند العنف .

تولستوي : لم اساند الارهاب والعنف ابدا ! لقـد تخليت عـــن عملي منذ ثلاثين سنة ، وما ذاك الا لاكافح ضد جرائم الحكام . منـذ ثلاثين سنة ـ وأنتم لم تولدوا بعد ـ وانا اطالب ، اكثر تطرفا منكم ، لا بالاصـــــلاح فحسب ، بل بايجاد نظم كاملة لتحسين الاوضـــاع الاجتماعية ...

الطالب الثاني : (مقاطعا) وماذا تم من ذلك حتى الان ؟ وهـل حققت مطالبك ؟ وماذا نلنا منذ ثلاثين سنة ؟ المقرعة التي سلطت على أتباعك الذين آمنوا برسالتك ، وسبـــع رصاصات في الصدر ! اي تحسين أدخلته على روسيا كتبك وبياناتك واصرارك المائع ؟ واخيـرا ، ألا تدرك انك تساند الطغيان حين تعلم الشعب على الصبر والانـــاة وتمنيه بامبراطورية الالف سنة ؟ لا ، يا ليو تولستوي ، لن يجديك ان تدعو هـــذا الشعب الابي باسم الحب ولو تحدثت بالسنة الملائكـة ! ان عبيد القيصر لن يخرجوا من جيوبهم روبلا واحدا من اجل مسيحهم، ولن يتنازلوا عن ضريبة واحدة قبل ان تمتد أيدينا الى رقابهم . لقد انتظر الشعـــب حبهم الاخوي بما فيه الكفاية ! لن ننتظـر بعد الان طويلا . فقد دقت ساعة العمل .

تولستوي : (بشدة) اعـــرف انكم ، الى هذا ، تسمون ذلك « عملا مقدسا » في بياناتكم الجديدة ، و « اثارة الاحقاد » في نظركم عمل مقدس ايضا ! ولكني انا لا اعرف الحقد ، ولا اريد ان اعرفـــه . لست أحقد حتى على اولئك الذين يرتكبون الجرائم ضد شعبنـــا ، ففاعل الشر أشقى في دخيلته من ذلك الذي يعانيه ـ ارثي له وانما لا احقد عليه .

الطالب الاول : (حنقا) اما انا فأحقـــد على كل الذين يظلمون الانسانية ـ أحقد على كل واحد منهم ، بدون استثناء ، كما أحقـــد على الوحوش الدامية ! لا ، يا ليو تولستوي ، لن تعلمني ابدا الشفقة على هؤلاء المجرمين .

تولستوي : مع ذلك فالمجرم أخي .

الطالب الاول : لو نال الانسانية عذاب من اخي وابن امي لن اتردد في قتله كما لا أتردد فـــي قتـل كلب مسعور . لا ، لن نشفق علـى القساة ! ان هـذه الاراضي الروسية لن يقر قرارها ولن تهدأ قبل ان تثوي تحتها جثث القيـــــاصرة والامراء ، ولن تكون ثمة نظم اخلاقية وانسانية ما لم نفرضها بالقوة .

تولستوي : ليس هناك نظم اخلاقية يمكن ان تفرض بالقوة ، لان كل قوة لا بد ان تخلق قوة مضادة . انكم تخلقون ظلما جديدا بمجرد رفعكم السلاح ، فانتم بذلك تخلدوه عوض ان تقضوا عليه .

الطالب الاول : ليست هناك وسيلة اخرى لمحاربة الاقوياء غيـر تحطيم قوتهم .

تولستوي : هذا حق ، ولكنه لا يجـــوز لنا ان نستعمل وسيـلة نذمها نحن انفسنا . صدقني ، ان القوة الحقيقية لا ترد على القـوة بالقوة ، بل تنتصر عليها بالاستسلام . لقد ورد ذلك في الانجيل ...

الطالب الثاني : (مقاطعا) اوه ، دعك من الانجيل ! لقد اتخذه القساوسة خمرا معتقة لفرض تخدير الشعب . لقد اعتبر ذلك قبـل الفي سنة ، ولم يساعد احدا آنذاك ، والا لما طفح العالم اليوم بالبؤس والدماء . لا ، يا ليو تولستوي ، ان كلمات الانجيل لم تعد اليوم تسد الثغرة بـــين المستغِلين والمستغَلين ، بين السادة والعبيد : ان بين هاتين الضفتين بؤسا شديدا . فهناك مئات ، بل آلاف من المؤمنين الاتقياء يعانون اليوم آلام الجوع والعطش والحرمان في سجون سيبيريا، وغدا سيصبحون آلافا ، عشرات الالاف . واني لاسالك ، هل يجوز حقا ان يستمر عذاب الملايين بسبب حفنة من المجرمين ؟

تولستوي : (موجزا) افضل ان يتعذبوا على ان تراق الدمـــاء مرة اخرى . فالعذاب البريء نفسه خير وقوة ضد الطغيان .

الطالب الثاني : (ثائرا) أتسمي العذاب خيرا ، عذاب الشعـب الروسي منذ آلاف السنين ؟ اذهب الى السجون ، يا ليو تولستوي ، واسأل المجلودين ، اسأل جياع مدننا وقرانا ، هل العذاب حقا خير ؟

تولستوي : (غاضبا) من المؤكد انه احسن من عنفكم وارهابكم . هل تعتقدون حقا ان في وسعكم ان تزيلوا الشر ، نهائيا ، من العالم بواسطة قذائفكم ومسدساتكم ؟ لا ، ان الشر يعمل في نفوسكم ذاتها .

واعيد عليكم ، ان العذاب من اجل عقيدة احسن مائة مرة من القتل في سبيلها .

الطالب الاول : (غاضبا ايضا) حسنا ، اذا كان العذاب مفيدا وخيرا ، يا ليو تولستوي ، حسنا ـ لم لا تتعذب انت نفسك ؟ وما بالك تمجد دوما تضحية الاخرين ، في حين تجلس انت نفسك في غرفة دافئة بمنزلك وتأكل في أوان فضية ، بينما يرتدي فلاحوك ـ لقد رأيت ذلك ـ الاسمال المهترئة ويكاد الجوع والبرد يقضيان عليهم في الاخبية الصقيعة ؟ لم لا تعرض نفسك للجلد عوض أتباعك الذين يتعذبون من اجل تعاليمك ؟ وبالتالي لم لا تترك هذا البيت الاميري وتنزل الى الشارع تتعرف بنفسك على روعة الفقر المزعومة وسط الرياح والثلوج والامطار ؟ فلماذا تكتفي بالحديث فقط ، عوض ان تعمل انت نفسك بتعاليمك ؟ واخيرا لم لا تجعل من نفسك مثلا يحتذى ؟

تولستوي : (يتراجع . فيثب الكاتب نحو الطالب ويهم بتأديبه ، ولكن تولستوي يستعيد اطمئنانه ، ويدفعه جانبا في رفق) دع ذلك ! ما أعظم هذا السؤال الذي وجهه الشاب الى ضميري ... انه سؤال سديد ، رائع ، ممتاز ... سأحاول الاجابة عليه بكل امانة وصدق . (يخطو خطوة صغيرة ، ويتردد ، ثم يسوي حاله بسرعة . يغمض صوته ويبح) انك تسألني لم لا احتمل العذاب في سبيل كلماتي وتعاليمي ، واني لاجيبك على ذلك في خجل شديد : اذا كنت قد تخليت عن اداء واجبي المقدس حتى الان ، فذلك ... ذلك ... لا ني ... جبان جدا ، ضعيف أو غير امين ، لاني انسان وضيع مذنب لا قيمة له ... فالهي لم يمدني بالقوة ، حتى هذا اليوم ، على فعل ما لا يؤجل . انك ، ايها الشاب الغريب ، تخاطب ضميري بكلام رهيب . اعلم انني لم افعل الجزء الالف مما يفعله الضيق والبؤس . اعترف ، بكل خجل وحياء ، انه كان علي ، منذ مدة طويلة ، أن أتخلى عن ترف هذا البيت وأغير اسلوب حياتي الشقية التي أعتبرها خطيئة ، وأنزل ، كما تقول انت تماما ، الى الشارع كحاج . ولست أعرف جوابا على ذلك سوى ان اخجل من اعماق نفسي وأركع امام شقائي ذاته . (يتراجع الطالبان ، مندهشين ، ويلزمان الصمت . برهة ، ثم يستمر تولستوي بصوت أوطأ) لكني ربما ... ربما أتألم وأتعذب رغم ذلك كله ... ربما اتعذب من انني بالذات لا أجد النزاهة والطاقة الكافية على تحقيق كلمتي والوفاء بوعدي مع الناس . لعل عذاب الضمير نكسه أشد وأعنف من آلام الجسد الرهيبة . لعل الهي طرق لي هذا الصليب وضاعف عذابي في هذا البيت ، فعانيت منه اكثر مما لو كنت في السجن أرسف في القيود ... لكنك على صواب ، فهذا العذاب لا يجدي ، لانه يخصني وحدي ، واني لاترفع عن التفاخر به .

الطالب الاول : (خجلا نوعا ما) ارجو المعذرة ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ، اذا كنت قد صرت شخصيا في فورة حماس ...

تولستوي : كلا ، كلا ، بالعكس ، انا اشكرك ! ان من هز ضمائرنا ، ولو بقبضة اليد ، فقد أحسن الينا . (صمت ، ثم يواصل تولستوي حديثه بصوت هادىء) هل لديكما سؤال اخر توجهانه الي ؟

الطالب الاول : كلا ، لقد كان سؤالنا الوحيد . أعتقد ان رفضك الوقوف الى جانبنا يعد من سوء حظ روسيا والانسانية جمعاء . فلن يقف احد في طريق هذا الانقلاب ، هذه الثورة . واني لأحس انها ستكون رهيبة ، افظع من اية ثورة على وجه الارض . والذين سيقودونها سيكونون رجالا قساة ، رجالا سادرين في عزمهم وتصميمهم ، رجالا دونما شفقة او رحمة . فلو وقفت في طليعتنا لحذا حذوك الملايين ولكانت الضحايا أقل .

تولستوي : لو تسببت في قتل نفس واحدة ، فاني لن استطيع تحمل مسؤوليتها امام ضميري .

(يدق الجرس في الطابق الاسفل) .

الكاتب : (لتولستوي ، لفرض انهاء الحديث) لقد دق جرس الغداء .

تولستوي : (في مرارة) اجل ، اكل ، ثرثرة ، نوم ، راحة ، ثرثرة ـ هكذا نعيش حياتنا العطلة ، بينما يشتغل الاخرون ويتقربون الى الله بأعمالهم (يلتفت من جديد الى الشابين) .

الطالب الثاني : اذن ، لن نحمل الى اصدقائنا شيئا اخر غير رفضك ؟ ولا كلمة تشجيع منك ؟

تولستوي : (ينظر اليه في حدة ، مفكرا) قولا لاصدقائكما باسمي ما يلي : اني احبكم واجلكم ، يا شبان روسيا ، لانكم تشعرون بآلام اخوانكم وتضحون بحياتكم في سبيل اخصاب حياتهم . (يتصلب صوته ويشد ويتوتر) ولكني لا استطيع ان اسير في ركابكم ، واني لارفض ان انضم اليكم بمجرد ان تتنكروا لحبكم الاخوي والانساني لجميع الناس .

(يسكت الطالبان . ثم يتقدم الطالب الثاني في عزم ويقول بشدة :)

الطالب الثاني : اننا نشكرك على استقبالك لنا ، كما نشكرك على صراحتك . من المؤكد اني لن اراجهك مرة اخرى مدى الحياة ـ ومن ثم ، دعني اقول لك ، انا اللاشيء المجهول ، كلمة صريحة اودعك بها . اقول لك ، يا ليو تولستوي ، انك مخطىء في ظنك ان الروابط الانسانية لا تصلح الا عن طريق الحب : قد يصح هذا بالنسبة للاثرياء والمغفلين ، اما اولئك الذين عرفوا الجوع منذ طفولتهم وتأملوا تحت سياط أسيادهم ، مدى حياتهم كلها ، فقد سئموا انتظار نزول الحب الاخوي من سماء المسيح ، وسيفضلون الثقة بمجامع ايديهم . هكذا اقول لك في عشية يوم مولدك ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ، ان العالم سيغرق في الدماء ، ولن يقال السادة فحسب ، بل سيقتل صغارهم ايضا ويمزقون ، وذلك لكيلا تنتظر الارض بعد منهم ما هو أنكى وأسوأ وأفظع . ونرجو ان تعفى من رؤية عاقبة خطئك ـ أتمنى لك هذا من كل قلبي ! أماتك الله ميتة هادئة !

(يتراجع تولستوي ، فزعا من حماسة الشاب ، ثم يستعيد هدوءه ويقترب من الشاب ويقول له في بساطة :)

تولستوي : اشكرك بصورة خاصة على كلمتك الاخيرة . لقد تمنيت لي ما كنت اشتاق اليه منذ ثلاثين سنة ـ ميتة هادئة مع الله والناس جميعا . (ينحني الاثنان وينصرفان . يشيعهما تولستوي بنظراته مدة ، ثم يأخذ في الذهاب والمجيء في انفعال ، ويقول لكاتبه متحمسا :) يا له من شباب ساحر ، كم هو شجاع شهم ، قوي أبي ، هذا الشباب الروسي ! هكذا عرفته امام « سيباستبول » قبل ستين سنة . كان شبابنا يتحدون الموت ويجابهون الاخطار بنفس النظرة المتحررة الوقحة كانوا مستعدين ان يموتوا ، نبلا ، مبتسمين من اجل لا شيء ، ان يضحوا بحياتهم ، حياتهم اليافعة الطرية الرائعة في سبيل جوزة جوفاء ، كلمة لا مضمون لها ، فكرة بلا حقيقة ، لمجرد فرحة التضحية . ما أروع هذا الشباب الروسي الخالد ! يدعو الى اثارة الاحقاد والقتل وكأنه يدعو الى قضية مقدسة ! ورغم ذلك فقد احسنا الي ، هزا ضميري ، هما الاثنان ، حقا لقد كانا على صواب . يجب علي ان انبذ ضعفي وخوري وتخاذلي وادافع عن كلمتي ! خطوتان قبل الموت ثم أتردد بعد ! حقيقة ، لا يسعنا ان نتعلم سداد الرأي الا عن الشباب ، وعن الشباب وحده .

(ينفتح الباب . فتدخل الكونتيسة كهبة ريح حادة . تبدو عصبية ، تائهة . حركاتها غير ثابتة . تنتقل عيناها من شيء الى اخر باستمرار . وحين تتكلم يشعر المرء انها تفكر في شيء اخر . يمزقها اضطراب داخلي . توجه الخطاب الى زوجها فقط ، متجاهلة وجود الكاتب . وتدخل خلفها ابنتها ساشا مسرعة ، يخيل للمرء انها تبعت امها لتقوم على حراستها) .

الكونتيسة : لقد دق جرس الفداء مسبقا ، ومحرر « دايلي تلغراف » ينتظرك تحت منذ نصف ساعة بسبب مقالك ضد الحكم بالاعدام ، فكيف تدعه ينتظر من اجل فتيان من هذا النوع ! يا له من شعب وقح وضيع ! عندما سألهما الخادم تحت عما اذا كانا قد اخبرا الكونت بزيارتهما ، اجاب احدهما : لم يخبر بزيارتنا اي كونت ،

ليو تولستوي هو الذي طلب حضورنا ! ثم تعاشر انت هؤلاء المغرورين الفضوليين الذين يتمنون ان يضطرب العالم اضطراب ادمغتهم ! (تشمل الغرفة بنظرة مرتبكة) كل شيء مبعثر هنا ، فالكتب فوق الارضية ، وكل شيء مختل مغبر ! فاية فضيحة لو جاء من هو أرقى منهم منزلة ؟ (تتجه نحو المتكأ وتلمسه) لقد تمزق المشمع تماما ، يجب ان يخجل المرء من هذا ، كلا ، انه لم يعد جديرا بالرؤية ! لحسن الحظ ان النجاد سيصل غدا من « تولا » . لا بد ان يصلح الكنفة في الحال . (لا احد يرد عليها . توزع نظراتها هنا وهناك ، قلقة .) ارجوك ، تعال الان ! لا يجوز ان ندعه طويلا !

تولستوي : (يشحب فجاة ويشتد اضطرابه) سآتي حالا ، لا يزال لدي هنا فقط ... شيء أرتبه... ستساعدني ساشا في ذلك... اجلسي مع السيد واعتذري لي ، سآتي حالا . (تنصرف الكونتيسة بعد ان تلقي على الغرفة نظرة شاملة مضطربة . ما تكاد تترك الغرفة حتى يرتمي تولستوي نحو الباب ويدير المفتاح) .

ساشا : (وقد افزعتها شدته) ما بك ؟

تولستوي : (في اهتياج عارم ، متلعثما ، وهو يضغط يده على قلبه) النجاد غدا ... الحمد لله ... لا يزال ثمة متسع من الوقت... الحمد لله .

ساشا : لكن ماذا اذا ؟..

تولستوي : (منفعلا) الي بسكين ، بسرعة ، سكين او مقص ... (يتناول الكاتب مقصا من فوق المكتب ويسلمه له بنظرة مستغربة . يبدأ تولستوي ، في سرعة عصبية ، بتوسيع مكان الفتق في الكنفة المهترئة ، وهو يتطلع ، خائفا ، بين وقت وآخر ، الى الباب المغلق . ثم يبحث بيديه ، مرتبكا ، في شعر الفرس الناتىء ، ثم يخرج في النهاية رسالة مختومة) هنا ـ أليس كذلك ؟.. شيء مضحك ... مضحك وغير محتمل الوقوع ، أشبه ما يحدث في رواية فرنسية تعسة عن حياة بائع جوال في الارياف ... فضيحة لا نهاية لها ... هكذا وجب علي ، مع سلامة قوتي العقلية ، في بيتي وفي الثالثة والثمانين من عمري ، أن أخفي أهم أوراقي ، لان اشيائي كلها تفتش ، فهناك من يقف ورائي ، وراء كل كلمة وكل سر ! اواه ، اية فضيحة واية حياة ، هي حياتي الجهنمية هنا في هذا البيت ، واي بهتان ! (تخف حدة ثورته . يفتح الرسالة ويقرأها ، لساشا) : قبل ثلاثعشرة سنة كتبت هذه الرسالة ، وذلك عندما قررت آنئذ هجر امك ومغادرة هذا البيت الجهنمي . لقد ضمنتها وداعي لها ، هذا الوداع الذي لم أجد الجراة على تنفيذه فيما بعد . (يفك الرسالة بين يديه المرتعدتين ويقرأ لنفسه بصوت نصف عال) : « ... لم اعد اطيق الاستمرار في هذه الحياة التي احياها منذ ست عشرة سنة ، انها حياة اكافح فيها ضدكم من جهة ، واشعر بضرورة استفزازكم من جهة اخرى . لهذا أقرر الساعة فعل ما كان علي ان افعله قبل وقت طويل، يعني ان اهرب ... لو قمت بفعل ذلك علنا لكان ثمة ألم ومرارة ... فلربما كنت اضعف واتراجع واتخاذل عن تنفيذ قراري ، بينما كان يجب اتمامه . فأرجوك ان تعذريني اذا ، اذا كنت قد اتخذت خطوة تؤلمكم ، وقبل كل شيء أنت يا سونيا ، اطرديني من قلبك تلقائيا ، لا تبحثي عني، لا تشتكي مني ولا تحكمي علي . » (يتنفس بجهد) : آه ، لقد عذبت نفسي طوال ثلاث عشرة سنة ، ورغم مضي ثلاث عشرة سنة فلا تزال كل كلمة صحيحة كالسابق . وحياتي اليوم كذلك ضعيفة جبان . فها أنذا لا زلت هنا ، لم اهرب بعد ، ولا ازال انتظر وانتظر ولا ادري ماذا ؟ ان معرفتي لكل شيء كانت صحيحة ، ومع ذلك كانت تصرفاتي خاطئة . كنت دوما ضعيفا امامها ، مجردا من ارادتي ! هكذا أخفيت الرسالة هنا كما يخفي التلميذ كتابا وسخا عن معلمه . لقد سلمت اليها الوصية التي رجوتها فيها انذاك ان تهدي حقوق مؤلفاتي كلها الى الانسانية جمعاء ، وذلك لمجرد ان اجد راحة البيت عوض راحة الضمير .

(برهة)

الكاتب : وهل تعتقد ، يا ليو نيكولايفتش تولستوي ـ أظنك تسمح لي بهذا السؤال ، ما دامت هناك فرصة غير منتظرة ـ هل تعتقد ... انه ... عندما ... عندما ينقلك الله الى جواره ... انه ... انه ستتحقق أمنيتك الاخيرة ، رغبتك المستعجلة هذه في التنازل عن حقوق مؤلفاتك ؟

تولستوي : (فزعا) طبعا ... يعني ... (مضطربا) لا ، لكني لست ادري ... ما رأيك يا ساشا ؟

ساشا : (تلتفت بعيدا عنه وتسكت) .

تولستوي : يا الهي ، اني لم افكر في ذلك . اولا : ها أنذا ، من جديد ، لا اصدق كل الصدق : ـ لا ، لم ارد ان افكر في ذلك ، لقد تخاذلت ، مجددا ، كما اتخاذل دوما امام كل قرار واضح سديد . (يرمق الكاتب بنظرة حادة) لا ، اعرف ، اعرف يقينا ان احترام زوجتي واولادي لارادتي الاخيرة سيكون أقل من احترامهم اليوم لمبادئي وواجباتي الروحية . انهم سيتجرون بمؤلفاتي ، وبالاضافة الى هذا ، فسأكون ، بعد موتي ، في نظر الناس كاذبا في كلامي ! (يقوم بحركة مقصودة) ولكن ، لا ينبغي ، لا يجوز ان يحدث ذلك ! اخيرا تجلت لي الحقيقة ! ماذا قال اليوم هذا الطالب ، هذا الانسان الصادق الامين ؟ ان العالم يطلب مني عملا ، اخيرا كلمة مخلصة ، يطلب مني قرارا واضحا نزيها ـ كان ذلك اشارة ! لا يجوز لامرىء في الثالثة والثمانين ان يغمض عينيه امام الموت ، بل يجب عليه ان ينظر في وجهه ويحدد مصيره بدقة . اجل ، لقد وعظني هذان الشابان وعظا حسنا : كل بطالة لا تخفي وراءها الا جبن النفس . على الانسان ان يكون واضحا صدوقا مخلصا . وهذا ما اريد ان اكونه اخيرا ، الان في ساعتي الثانية عشرة وفي الثالثة والثمانين من عمري . (يلتفت الى كاتبه وابنته) يا ساشا وفلادمير غيورغوفتش ، سأكتب غدا وصيتي بكل عزم ونزاهة واصرار وحتمية لا تقبل الرجوع ، سأهدي فيها عوائد مؤلفاتي ، كل النقود القذرة التي تزيد فيها ، الى الكل ، الى الناس جميعا ـ لا يجوز الاتجار بكلمات انتزعتها من ضيق دخيلتي وتعاسة ضميري وكتبتها من اجل الجميع . تعال غدا قبل الظهر واجلب معك شاهدا ثانيا ـ لا يجوز ان اتردد مدة أطول ، فقد يعوق الموت يدي عن ذلك .

ساشا : لحظة اخرى يا ابي ـ ليس ذلك لاني اريد ان اصدك عن عزمك ، وانما لاني اخشى الصعوبات التي قد تجابهنا ان رأتنا امي هنا في اربعة اشخاص . انها ستشك في الحال ، ولربما تحاول ، في اللحظة الاخيرة ، ان تثنيك عن عزمك .

تولستوي : (مفكرا) انت على صواب . لا ، لست استطيع انهاء عمل حميد في هذا البيت ، انهاء شيء معقول : كم تغدو الحياة زورا في هذا البيت ! (للكاتب) دبر الامر واحرص على ان نلتقي صباح غد في الساعة الحادية عشرة في غابة « غرومونت » الى اليسار عند الشجرة الكبيرة خلف حقول السلت . وسأعمل انا كما لو اني اقوم بركوبي المعتاد . أعدا كل شيء ، وثمة سيمدني الهي اخيرا ، كما آمل ، القدرة على الخلاص من القيد الاخير .

(يدق جرس الغداء بشدة للمرة الثانية) .

تولستوي : (متنفسا بصعوبة) ما افظع ان يلزم الانسان دوما بالتظاهر ، ان يختبىء باستمرار . اريد ان اصدق مع الناس ، اريد ان اصدق مع الهي ، اريد ان اكون صادقا مع نفسي ، ولكني لا استطيع ان اكون كذلك مع زوجتي واولادي ! لا ، يستحيل علي ان اعيش حياة كهذه ، لا ، لا استطيع العيش هكذا !

ساشا : (فزعة) امي !

الكاتب : (يدير مفتاح الغرفة بسرعة . يخطو تولستوي نحو المكتب ليخفي ثورته عن العيون ، ويدير ظهره للمرأة الداخلة) .

تولستوي : (مهمهما) الزيف في هذا البيت يسمني ـ أواه ، لو يتاح لي مرة ان اصدق ، ان اصدق مرة واحدة على الاقل قبل موتي !

الكونتيسة : (تدخل بسرعة) لم لا تأتون ؟ يعوزك دوما وقت طويل !

تولستوي : (يلتفت اليها وقد هدأت تعابير وجهه . يتحدث ببطء وبلهجة يفهمها الاخرون) اجل ، معك حق . يعوزني دوما وقت طويل . ولكن المهم هو شيء واحد : ان يجد الانسان متسعا من الوقت لفعل الخير في حينه .

ـ المشهد الثاني ـ

نفس الغرفة . هزيع ليلة اليوم التالي .

الكاتب : ينبغي لك ان تنام مبكرا ، يا نيكولايفتش ، فلا شك انك قد تعبت من الركوب وكثرة الهيجان .

تولستوي : لست تعبا على الاطلاق . هناك شيء واحد يتعب الانسان : الحيرة والقلق . ان كل عمل خلاص ، والعمل السيىء نفسه أحسن من البطالة . (يسير في الغرفة جيئة وذهابا) لست ادري اذا كنت اليوم قد تصرفت تصرفا حسنا ، يجب علي أول بدء ان اسأل ضميري . ان ارجاع آثاري الى الجميع قد خفف عن روحي ، ولكني اعتقد انه ما كان يجوز لي ان اكتب وصيتي سرا ، بل كان يجب ان تكتب علنا وبصورة تتجلى فيها ، بالدرجة الاولى ، بطولة العقيدة . لعلي لم اكن جديرا بعمل كان حقه ان يؤدى اخلاصا للحقيقة وحدها ـ لكني احمد الله ، فقد حدث ذلك ، ارتقيت درجة اخرى فيالحياة ، درجة اقرب الى الموت . ولم يبق الان الا اصعب شيء ، اخر شيء : التسلل الى الدغل ، كالحيوان ، في الوقت المناسب . عندما تدنو النهاية ، فموتي في هذا البيت سيكون زيفا كحياتي . اني في الثالثة والثمانين من عمري ، ومع ذلك ، مع ذلك لم اجد بعد القدرة على تحرير نفسي من الملذات الدنيوية . لعلي ضيعت ساعتي المناسبة .

الكاتب : ومن يعرف ساعته ؟! فلو عرفها الانسان لكان كل شيء على ما يرام .

تولستوي : لا ، يا فلادمير غيورغيوفتش ، ما كان ذلك يكون على ما يرام . ألا تعرف اسطورة قديمة ـ لقد رواها لي مرة فلاح ـ تروي كيف انتزع المسيح من البشر العلم بالموت ؟ قبل ذلك كان كل واحد يعرف ساعة موته ، وحين نزل المسيح مرة الى الارض لاحظ ان بعض الفلاحين لم يزرعوا حقولهم وعاشوا كالمذنبين . فعاتب واحدا منهم على كسله ، غير أن اللص لم يزد على ان قال : لمن يزرع الارض اذا كان عمره لا يمتد الى وقت الحصاد ؟ اذ ذاك عرف المسيح انه ليس من المصلحة ان يعرف البشر شيئا عن اجلهم قبل حينه . وهكذا انتزع منهم العلم به . ومنذ ذلك الحين لزم على الفلاحين ان يزرعوا حقولهم الى آخر يوم كما لو انهم سيعيشون ابدا . وهذا حق ، فالانسان لا ينال حظه من الخلود الا بالعمل . وذاك ما اريده انا اليوم (يشير الى مذكراته) بعد زراعة حقلي اليومي .

(خطوات صارمة في الخارج . تدخل الكونتيسة مرتدية منامتها ، وترمي الكاتب بنظرة حانقة) .

الكونتيسة : هكذا ... ظننت انك ، اخيرا ، وحدك ... اردت ان احدثك ...

الكاتب (منحنيا) انا ذاهب !

تولستوي : مع السلامة يا عزيزي فلادمير غيورغيوفتش .

الكونتيسة : (لما يكد الباب ينغلق خلفه) انه يلازمك دوما ، يتعلق بك كسلسلة ... اما انا فانه يكرهني ، يحقد علي ، يريد ابعادك عني ، هذا الانسان الوضيع النذل .

تولستوي : انك تظلمينه يا سونيا !

الكونتيسة : لا اريد ان اكون منصفة . لقد فرق بيننا ، سرقك مني وأبعد اولادك عني . لم يعد لي اعتبار منذ دخوله بيتنا ، وانت نفسك تخص العالم كله ، ولا تخصنا نحن ، أقرب الناس اليك .

تولستوي : لو أمكنني ذلك حقا ! لقد اراد الله ان اكون ملكا للجميع ولا احتفظ بشيء لنفسي واهلي .

الكونتيسة : اجل ، أعلم انه يقنعك بهذا ، هو الذي سرق اولادي. انا اعلم انه يؤلبك علينا جميعا . ولهذا لا احتمل رؤيته ، هذا المؤلب الوغد ، لا اريده !

تولستوي : ولكنك تعلمين ، يا سونيا ، اني في حاجة اليه لعملي .

الكونتيسة : ستجد مائة غيره ! (في اصرار) لا اطيق قربه ، لا اريد رؤية هذا الانسان بيني وبينك .

تولستوي : يا سونيا الطيبة ، ارجوك ، هدئي من روعك ! تعالي ، اجلسي ها هنا ، فلنتكلم بهدوء ـ تماما كما كنا في الزمن الماضي عندما بدأت حياتنا ـ فكري ، يا سونيا ، كم قليلة هي الكلمات والايام الجميلة التي بقيت لنا ! (تنظر الكونتيسة حولها في ارتباك وتجلس مرتجفة) انظري ، يا سونيا ، اني في حاجة الى هذا الانسان ـ لعلي احتاج اليه لمجرد اني ضعيف العقيدة ، لاني ، يا سونيا ، لست قويا بالدرجة التي كنت أصبو اليها . كل يوم ازداد تأكيدا من ذلك . ان هناك آلافا من الناس ، المنتشرين في بقعة ما من بقاع العالم البعيدة ، يشاطرونني عقيدتي ، فافهمي ، يا سونيا ، ان قلبنا الدنيوي في حاجة الى انسان واحد على الاقل ، وذلك ليتأكد من نفسه ، في حاجة الى حبه الحي ، المنظور ، المحسوس ، المدرك ! لعل القديسين استطاعوا ان يعملوا في صومعتهم دونما مساعد ، ولم يتهاونوا بذلك ايضا رغم فقدان الرقيب ، لكني انا ، انا لست قديسا ، يا سونيا ـ ما انا الا رجل ضعيف هرم . ولذا يجب ان يكون قربي من يشاطرني عقيدتي ، هذه العقيدة التي هي الان اثمن شيء في حياتي المسنة الوحدة . من الطبيعي اني كنت احظى بالسعادة الكبرى لو انك انت ، المرأة التي أجلها ، شاكرا ممتنا ، منذ ثمان واربعين سنة ، أردت مشاركتي في عقيدتي الدينية ، ولكنك ، يا سونيا ، لم تريديها قط . انك تنظرين الى ما قد غدا بالنسبة لروحي اعز شيء واثمنه نظرة خالية منالحب ، واخشى انك تنظرين اليه بكراهية ايضا . (تقوم الكونتيسة بحركة) لا ، يا سونيا ، لا تسيئي فهمي ، فلست اشكوك . لقد منحتني ومنحت العالم ما امكنك منحه ، منحتنا حب الام وفرح عنايتها ، فيف يمكنك ان تضحي من اجل عقيدة لا اثر لها في اعماق ذاتك ، وكيف يسعني ان اشو من انك لا تشاطرينني اعمق افكاري ـ حياة الانسان الروحية وافكاره الاخيرة تبقى على الدوام سرا بينه وبين الهه . انظري ، يا سونيا ، لقد حل ببيتي اخيرا انسان ، اخيرا انسان ناله في السابق عذاب قاس في سيبيريا من اجل عقيدته ، وها هو الان يشاطرني عقيدتي ، يحل ضيفا عزيزا علي ، فيساعدني ويخصب حياتي الداخلية ـ فلم لا تريدين ترك هذا الانسان لي ؟

الكونتيسة : لقد ابعدك عني ، وهذا ما لا اجد القدرة على احتماله. لا اطيقه ، انه يخنقني ، يثيرني ، يسقمني . فانا اعلم ان كل عمل يصدر عنكما موجه ضدي . لقد فاجأته اليوم ظهرا من جديد ، فاخفى ورقة بسرعة ، ولم يستطع احد منكم النظر في عيني : لا هو ولا انت ولا ساشا. انكم تخفون عني شيئا ، اجل ، اني اعلم ذلك . لقد تآمرتم علي ..

تولستوي : ارجو ان يكون الهي قد حفظني ، وبيني وبين الموت شبر ، من ذنب ارتكبته على علم مني .

الكونتيسة : (في كلف .) اذا فانت لا تنكر انكم قد فعلتم شيئا في السر ... شيئا ما ضدي . آه ، انت تعلم انك لا تستطيع ان تكذبني كما تكذب الاخرين !

تولستوي : (غاضبا .) انا اكذب الاخرين ؟! اتقولين لي هذا انت انت التي ابدو بسببك كاذبا امام الاخرين ؟ (يهدىء من روعه .) آمل ، ارجو الان الا اكون قد ارتكبت خطيئة الكذب على علم . لعلي لم اجد القدرة احيانا ، انا الانسان الضعيف ، على قول الحقيقة بكاملها ، ولكني لا اعتقد اني كنت بذلك قد كذبت الناس وخدعتهم .

الكونتيسة : اذا ! قل لي ماذا فعلت ـ اية رسالة كانت ، اية ورقة ... لا تعذبني طويلا ...

تولستوي : (يقترب منها ، في رفق) لست انا الـــذي اعذبك يا صوفيا اندرييفنا ، بل انت التي تعذبين نفسك ، لانك لم تعـــودي تحبينني . فلو كنت تحبينني لوثقت بي ايضا ـ وثقت بي حتى هناك حيث تعجزين عن فهمي . ارجوك ، يا صوفيا اندرييفنا ، انظري فـــي ذلك قليلا : اننا نحيا حياة مشتركة منذ ثمان واربعين سنة ! فلعلك تجدين ، عبر هذه السنوات الكثيرة ، في مكان ما من الزمن المنسي في خفايا ذاتك ، شيئا من الحب لي : ثم خـــذي ، رجاء ، هذه الشرارة واضرميها ، حاولي أن تكوني لي مرة اخرى كما كنت لي طوال الزمـن الماضي ، متحببة واثقة ، عطوفة مخلصة ، فانـي ، يـــا سونيا ، كثـــيرا ما تفزعني معاملتك لي الان .

الكونتيسة : (متأثرة ثائرة) لم اعد اعـــرف كيف انا . اجـل ، الحق معك ، لقد اصبحت قبيحة ، اصبحت امرأة سوء ! ولكـن مـــن يستطيع احتمال رؤيتك وانت تتعذب من اجل ان تكون اكثر من انسان ـ هذا الميل المفرط الى الحياة مع الرب ، هذه الخطيئة . خطيئـــة ، اجل ، انها خطيئة ، كبرياء وترفع وجبروت ، فليس ورعا وخضوعـــا وتقوى ان تلاحق الرب وتبحث عن حقيقة منعت عنا . في الماضـي ، في الماضي كان كل شيء واضحا وعـــلى ما يرام . كنا نعيش كبقيـــة الناس ، نحيا حياة طاهرة مستقيمة . كانت لنا اعمالنا وسعادتنـــا . فنما وشب اطفالنا وبدأنا نحتفي بشيخوختنا قبل اوانها . وفجـأة حدث هذا ، آنذاك قبل ثلاثين سنة ، حدث لك هذا ، اعتـراك هـــذا الوهم الكبير ، هذه العقيدة التي أشقتك وأشقتنا . فما هو ذنبي انـا اذا كنت لا افهم بعد معنى تنظيفك الموقد وحملك الماء وانتعالك سوقاء مهترئة ، انت الذي يجلك العالم كأكبر فنان ! لا ، انـي لا ادرك بعـــد لم تغدو حياة خيرة ، موفرة مدبرة ، لم تغدو ، فجأة ، حياة كحياتنـا خطيئة في حق الانسان ؟ لا استطيع فهم هذا ، لا استطيع ، لا استطيع ذلـــك !

تولستوي : (مترفقا) انظري ، يا سونيا ، هذا ما قلته لـــك بالضبط : هناك حيث تفقد القدرة على الفهم والادراك ، هناك بالـذات يجب علينا ان نثق بقوة حبنا ونعمته . وليس هذا بالنسبة للنـــاس فحسب ، بل بالنسبة لك ايضا . هل تعتقدين حقا اني أدعي عـــلم ما هو حق وصواب ورشاد ؟ لا ، اني لا أثق الا بما ينوي الانســـان عمله وينال في سبيله العذاب المر . ان شيئا كهذا لا يمكن ان يكـون عديم المعنى والقيمة في نظر الله والانسان . فحاولي انت ايضـــا ، يا سونيا ، حاولي ان تؤمني هناك حيث لا تستطيعين فهمي ، ثقي على الاقل برغبتي في عمل الخير ، وسيعود كل شيء ، مجددا ، الى ما كان عليه ، سيكون كل شيء على ما يرام .

الكونتيسة : (مضطربة) اذن ستقول لي كل شيء .. ستخبرني بكل ما فعلتموه اليوم .

تولستوي : (في هدوء) سأخبرك بكل شيء ، ولن اعمل بعـــد شيئا في السر شبر حياتي المتبقي ! ولسوف انتظر عودة كل مـــن سريوشكا واندرى ، وعندها سأقف امامكم جميعا واخبركم بما قررتـه في هذه الايام . فاتركي ، يا سونيا ، عدم الثقة خلال هذا الاجـــل القصير ولا تتجسسي علي ـ هذا رجائي الوحيد القلبي ، يا صوفيـــا اندرييفنا ، فهل تريدين تحقيق رجائي ؟

الكونتيسة : اجل ... اجل ... مؤكد ... اكيد .

تولستوي : أشكرك . انظري ، أرأيت كيف ان الصراحـة والثقة تجعلان كل شيء أخف وأهون ! فما أروع ان نتحدث في جو مـــن الهدوء والصداقة ! لقد بعثت الدفء في قلبي من جديد . فانظـري ، عندما دخلت كان الحذر يعمر قسمات وجهك ، حتى اني استغربـــت ما كان يجول فيه من اضطراب وحقد ، فلم أعرف انك انت التي كانت في السابق . اما الان فيبدو جبينك واضحا من جديد . وها أنذا اعرف ، ثانية ، عينيك ، يا صوفيا اندرييفنا ، وأنت لا تزالين فتـــاة يافعة ، أعرف العينين اللتين كانتا رحيمة بي ، عطوفة علي شفوقة . والان ، اذهبي واستريحي ، يا حبيبتي ، فقد مضى الوقت وتأخـــر . واني لاشكرك من كل قلبي . (يقبل جبينها . تنصرف الكونتيسة . وعند الباب تلتفت مرة اخرى في ارتباك) .

الكونتيسة : ولكنك ستخبرني بكل شيء ؟ كل شيء ؟

تولستوي : (لا يزال على هدوئه) كل شيء يا سونيا . ولا تنسي انت وعدك .

(تبتعـــد الكونتيسة ببطء وهي تلقي عـلى المكتب نظـــرات قلقة مضطربة) .

تولستوي : (يذهب ويجيء في الغرفة عـــدة مرات . ثم يجلس الى مكتبه ويرسم بضع كلمات في مذكراته . ينهض بعد لحظة ويـذهب ويجيء . يعود مرة اخرى الى المكتب ويورق ، مفكرا ، صفحات مـــن المذكرات . يقرأ ما كتب بصوت نصف عال : « انني اجهـــد نفسي ان أبدو هادئا مصمما ، قدر الامكان ، امام صوفيا اندرييفنا ، وأعتقد اني سوف انجح في تهدئتها ... لقد ظهر لي اليوم ، لاول مرة ، ان فـــي وسعي حملها ، بالحب والعطف والشفقة ، عـــلى التسليم ... آه ، لو ان ... » يضع المذكرات ، وينفس بصعوبة ، وبالتالي ينتقل الـى الغرفة المجاورة ، ليشعل الضوء فيها . يعود مرة اخرى ويخلع ، فـي جهد ، عـن رجليه حذاء الفلاح الثقيل ، وينزع السترة ، ثـــم يطفىء الضوء ويذهب الى فراشه في الغرفة المجاورة ، ولم يرتد ســـوى السروال الواسع وقميص العمل) .

(تظل الغرفة ، لمدة وجيزة ، هادئة مظلمة جـــدا . لا يحـــدث شيء ، ولا يسمع نفس . فجأة ينفتح الباب المؤدي الى المكتب بهدوء وفي حذر السارق . شخص ما يجوس ، حافي القدمين ، في المكـان الحالك الظلام ، وبيده مصباح يلقي على الارض خيطا رفيعا مـــن الضوء . انه الكونتيسة . تنظر حولها في خوف وتنصت الى بـــاب غرفة النوم ثم تتسلل ، مطمئنة على ما يظهر ، الى المكتب في الناحية المقابلة . ضوء المصباح ينصب بالدرجة الاولى على مكان المكتب الغارق في الظلام . تلتقط الكونتيسة التي لا يرى منها غير يديها المرتعشتيـن في دائرة الضوء ـ تتناول اولا ورقة مهملة ، ثم تبدأ ، في اضطـراب عصبي ، بقراءة المذكرات ، وبالتالي تخرج الاوراق ، الواحدة تـــلو الاخرى ، من درج المنضدة ، وتبحث في الاوراق بسرعة متنامية دون ان تجد شيئا . اخيرا تتناول المصباح بحركة مرتجفة وتخرج . محياها شارد كأنه وجه سائر متكلم في النوم . وما يكاد الباب ينغلق خلفهـــا حتى يفتح تولستوي باب غرفة النوم برجة واحدة ، وفي يده شمعـــة متأرجحة . كانت الثورة تهز الرجل العجوز بصورة رهيبة : لقد كان متربصا بزوجته . يجري وراءها بسرعة ويشد مقبض الباب ، غير انه يستدير بقوة . يضع الشمعة فوق المنضدة في هدوء واتزان وعـزم . ثم يتجه نحو باب غرفة في الجهة الاخرى ، ويدق في حذر وبصـوت خافت جدا) .

تولستوي : (بخفوت) دوشان ... دوشان ...

صوت دوشان : (آتيا من الغرفة المجـــاورة) هل انت هـــو يا ليو نيكولايفتش ؟

تولستوي : لا ترفع صوتك يا دوشان ! اخرج في الحال ...

دوشان : (يقبل من الغرفة المجاورة ، مرتديا نصف ثيابه ايضا)

تولستوي : أيقظ ابنتي الكسندرا لفوفنا ، عليها ان تحضر فـــي الحين ! ثم اذهب بسرعة الى الاسطبل ومر غريغور باعداد الخيـول ، وليفعل ذلك في هدوء حتى لا يلاحظ احد شيئا . وكن انت نفســـك هادئا ! لا تنتعل حذاءك ، وكن حذرا فان الابواب تصر . يجب ان نذهب بدون تأخير ـ لم يبق لنا وقت نضيعه .

(يخرج دوشان مسرعا . يجلس تولستوي وينتعل جزمته وقـــد اتخذ قرارا قاطعا . يلتقط سترته ويرتديها بسرعة . ثم يبحث عـــن بعض الاوراق ويقوم بجمعها . حركاته عصبية وأحيانا مرتعدة . يرتج كتفاه وهو جالس الى المكتب يسطر بعض الكلمات في ورقة) .

ساشا : (تدخل في هدوء) ماذا حدث يا ابت ؟

تولستوي : سأسافر ، سأهرب ... اخيرا ... اخيرا اتخـذت

قراري النهائي . قبل ساعة حلفت لي انها ستثق بي . وها هي الان تدخل في الثالثة صباحا الى غرفتي لتبحث في اوراقي ... لكن ، كان ذلك حسنا ، حسنا جدا ... لم يكن ذلك بارادتها هي ، بل بارادة اخرى . كم كنت ارجو الله ان يمنحني اشارة حين يحين الوقت ـ وها هو يمن بها علي الان . ولي الحق في هجرها الان كما هجرت هي روحي .

ساشا : ولكن الى اين تريد ان تذهب يا ابي ؟

تولستوي : لا اعرف ، ولا اريد ان اعرف ... الى مكان ما . حسبي ان اهرب من هذا الوجود المزيف ... الى مكان ما ... ان فوق الارض شوارع كثيرة . هناك في مكان ما ينتظر تبن او فراش ان يموت فيه رجل عجوز ، في هدوء .

ساشا : سأرافقك ...

تولستوي : لا . يجب ان تبقي هنا لتهدئتها وادخال الطمأنينة على نفسها ... انها ستجن ... اواه ، اي ألم سيصيبها هي المسكينة !.. وانا ، انا ذلك الذي يعذبها ... لكني لست استطيع غير هذا ... والا سوف اختنق هنا . انت تبقين هنا الى ان يصل اندرى وسيريوشكا . ثم الحقي بي . سأسافر اولا الى دير شمردينو لاودع اختي ، فانا اشعر ان وقت الوداع قد قرب .

دوشان : (يعود مسرعا) لقد أعدت الخيول .

تولستوي : اذن فاستعد انت نفسك يا دوشان . خذ أخف هذه الاوراق عندك .

ساشا : يجب عليك يا ابي ان تأخذ المعطف الفرو ، فالبرد قارس جدا في الليل . سأجلب لك بسرعة ثيابا دافئة ...

تولستوي : لا ، لا ، لا شيء اكثر . يا الهي ، لا يجوز لنا ان نتردد بعد ... لا اريد ان انتظر بعد ... لقد انتظرت هذه الساعة ، هذه الاشارة ستا وعشرين سنة ... استعجل ، يا دوشان ... فقد يؤخرنا احد ويعوقنا . هنا ، خذ الاوراق ، كتب المذكرات والقلم ..

ساشا : واجرة السفر ، سأجليها ...

تولستوي : لا ، لا نقود بعد ! لا اريد ان المسها بعد . انهم يعرفونني في المحطة وسيقطعون لي البطاقة ، وفيما عدا ذلك فان الله سيساعدني . انه عملك وتعال يا دوشان . (لساشا) : سلمي اليها أنت هذه الرسالة : انها وداعي لها . فلتغفر لي عنها . واكتبي لي كيف احتملت ذلك .

ساشا : وكيف اكتب اليك يا أبي ؟ فلو ذكرت اسمك وعنوانك في البريد لعرفوا ذلك وطاردوك . يجب عليك ان تأخذ اسما مستعارا.

تولستوي : آه ! الكذب ! البهتان دوما ! ان الاسرار تنزل روحي دوما الى الحضيض ... لكنك على صواب ... تعال يا دوشان ! كما تريدين يا ساشا ... ما هي الا نية حسنة ... اذن كيف اسمي نفسي ؟

ساشا : (تفكر لحظة) سأوقع البرقيات كلها باسم فرولوفا . اما انت فتتسمى باسم ت. نيكولاييف .

تولستوي : (وقد نفد صبره) حسنا ... حسنا . ت. نيكولاييف ... والان وداعا . (يعانقها) . قلت لي ينبغي ان أتسمى باسم ت. نيكولاييف . اذن كذبة اخرى ! واحدة اخرى ! الان ، اذا أعانني الله ، فانها ستكون اخر كذبة اكذبها على الناس .

(يخرج مسرعا) .

ـ المشهد الثالث ـ

(بعد ثلاثة ايام (٣١ اكتوبر ١٩١٠) . غرفة الانتظار بمحطة استابوفو . الى اليمين باب زجاجي كبير يفضي الى افريز المحطة . والى اليسار باب يفضي الى مسكن ناظر المحطة ، ايفان ايفانوفتش اوسولنغ . تحتوي غرفة الانتظار على مقاعد خشبية ومائدة ، جاس حولها بعض المسافرين في انتظار القطار السريع القادم من « دانلوف » : فلاحات نائمان وقد تلفعن بأرديتهن ، وتجار صغار يرتدون معاطف صوفية ، وبالاضافة الى هذا بعض اثرياء المدينة ، لعلهم موظفون او تجار .

المسافر الاول : (يقرأ جريدة ، فجأة بصوت عال) : ان تصرفه هذا لمتناز ! عمل نادر فام به العجوز . ما كان احد ليتوقع ذلك منه !

المسافر الثاني : وماذا هناك اذن ؟

المسافر الاول : لقد هرب ليو تولستوي من بيته . ولا احد يعرف الى اين ؟ نهض في الليل ، وانتعل جزمته وارتدى المعطف الفرو وسافر هكذا دون متاع ودون وداع ، ولم يرافقه غير طبيبه دوشان بتروفيتش.

المسافر الثاني : وترك زوجته العجوز في البيت . ليس هذا مزاحا بالنسبة لصوفيا اندرييفنا ! من كان يتوقع منه ذلك ، والى اين ، تقول ، انه سافر ؟

المسافر الاول : هذا بالضبط ما يود معرفته اهل البيت ورجال الصحافة . انهم الان يرسلون البرقيات الى جميع انحاء العالم . وقد ادعى بعضهم انه رآه عند الحدود البلغارية ، ولكن البعض الاخر يتحدث عن سيبيريا . ولا احد يعرف شيئا على التحقيق . لقد احسن صنعا ، هذا العجوز !

المسافر الثالث : (طالب شاب) ماذا تقولان ؟ لقد هرب ليو تولستوي من بيته ، ارجوك ، أعطني الجريدة ودعني أقرأ ذلك بنفسي . (يلقي نظرة عليها) آه ، مرحى ! كان حسنا وجميلا منه ان ينهض اخيرا !

المسافر الاول : ولم يكون ذلك جميلا منه ؟

المسافر الثالث : لان الحياة التي كان يحياها كانت متناقضة لتعاليمه . لقد طالما أرغموه على تمثيل دور الكونت وخنقوا صوته بالتملق والمداراة . اخيرا اصبح في وسع ليو تولستوي ان يخاطب الناس بحرية ومن اعماق روحه . نرجو الله ان يوفقه في اطلاع العالم على ما يحدث لشعب روسيا . اجل ، لقد أحسن صنعا ، انه لنعمة على روسيا وشفاء لها ان يكون هذا القديس قد تحرر اخيرا ونجا بنفسه .

المسافر الثاني : لعل هذا مجرد ثرثرة لا اساس لها من الصحة ، لعل (يلتفت ليرى ما اذا كان هناك من ينصت ، ثم يهمس) : لعلهم كتبوا ذلك في الجرائد ليخدعوا الناس فقط ، بينما هم في الحقيقة قد اعتقلوه ونفوه .

المسافر الاول : ومن تكون له مصلحة في نفي ليو تولستوي وطرده ؟..

المسافر الثاني : هم ... كل اولئك الذين يعترض سبيلهم ، هم كلهم ، الكهان والشرطة ورجال الجيش ، كل اولئك الذين يخافونه . لقد اختفى بعضهم في السابق بهذه الطريقة ، الى الخارج ، هذا ما قيل فيما بعد ... لكنا نعلم ماذا يقصدون بالخارج ...

المسافر الاول : (بصوت واطىء ايضا) هذا ممكن ...

المسافر الثالث : لا ، انهم لا يتجاسرون على هذا . ان هذا الرجل بكلامه فقط يفوقهم قوة ، هم جميعا ، لا ، انهم لا يتجاسرون على ذلك ، لانهم يعلمون اننا سنخرجه بقبضات ايدينا .

المسافر الاول : (بسرعة) حذار ... انتبه ... ان سيريل غريغوروفتش قادم ... اخف الجريدة بسرعة ...

(يدخل رئيس الشرطة سيريل غريغوروفتش ، في بذلته الرسمية، عبر الباب الزجاجي قادما من افريز المحطة . يتجه في الحال الى غرفة ناظر المحطة ويدق) .

ايفان ايفانوفتش اوسولنغ : (ناظر المحطة ، من داخل غرفته ، وفوق رأسه قبعة العمل) آه ، انت هو يا سيريل غروغوروفتش ...

رئيس الشرطة : يجب ان اتحدث معك في الحين . هل زوجتك معك في الغرفة ؟

ناظر المحطة : نعم .

رئيس الشرطة : اذن فالاحسن هنا ! (للمسافرين بصوت آمر

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

الهروب الى الله

ـ تتمة المنشور على الصفحة ٣١ ـ

حاد) : ان القطار السريع القادم من « دانلوف » سيصل بعد حين . فالرجاء مغادرة غرفة الانتظار والذهاب الى افريز المحطة . (ينهضون جميعا ويتدافعون الى الخارج بسرعة . رئيس الشرطة لناظر المحطة) لقد وصلت الان برقيات متتابعة هامة . وقد ثبت ان ليو تولستوي قد هرب وحل قبل نهار الامس عند اخته في دير شمردينو . وهناك دلائل مؤكدة تشير الى انه ينوي مواصلة سفرته من هناك . ورجال البوليس السري يرافقون كل قطار يغادر شمردينو منذ اول امس .

رئيس المحطة : ولكن قل لي ، ايها الابي سيريل غريغوروفتش ، لم كل هذا في الواقع ؟ ان ليو تولستوي ليس من المشعوذين ، بل هو شرفنا ، الكنز الحقيقي لبلادنا ، هذا الرجل العظيم .

رئيس الشرطة : ولكنه يثير الاضطرابات ، انه اخطر من عصابة الثوار كلها . ثم ان الامر لا يهمني انا . فمهمتي هي مراقبة جميع القطارات . ولكن رجال موسكو يريدون ان تحاط مراقبتنا بتكتم شديد. لذا ارجوك يا ايفان ايفانوفتش ان تذهب الى افريز المحطة عوضا مني، فكل واحد سيعرفني من بدلتي الرسمية . وبمجرد وصول القطار سينزل البوليس السري ويحدثك عما لاحظه في اثناء السفرة . وبعدها سأنقل الخبر في الحين .

رئيس المحطة : سأهتم بذلك كل الاهتمام .

(يدق الجرس ايذانا باقتراب القطار من مدخل المحطة) .

رئيس الشرطة : يجب ان تخيي رجال البوليس السري بصورة طبيعية كما لو انك تحيي بعض الاصدقاء ، أليس كذلك ؟ ولا يجوز ان يلاحظ المسافرون شيئا من هذه المراقبة ، وانه لمن مصلحتنا ، نحن الاثنين ، ان نقوم بواجبنا كما ينبغي ، فكل خبر ينقل الى بترسبورغ سيبلغ اعلى وظيفة ـ لعل واحدا منا ينال صليب غيورغ . (يدخل القطار المحطة من الخلف مدويا . يخرج ناظر المحطة ، مسرعا ، عبر الباب الزجاجي . بعد لحظات يقبل المسافرون الاولون ، فلاحون وفلاحات ، حاملين السلال الثقيلة ، عبر الباب الزجاجي في جلبة وصخب . يجلس البعض منهم في غرفة الانتظار اما للراحة او لعمل الشاي) .

ناظر المحطة : (يدخل فجاة عبر الباب ، ويصيح في الجالسين ثائرا) : غادروا المكان في الحال ! كلكم ! حالا !

الناس : (مندهشين مهمهمين) لماذا اذن ؟.. لقد دفعنا الاجرة... لم لا يجوز لنا الجلوس في غرفة الانتظار ؟.. نحن في انتظار القطار العادي !

ناظر المحطة : (صائحا) اقول لكم في الحال ! اخرجوا كلكم ! (يدفعهم الى الخارج بسرعة ، ثم يتجه ، مسرعا ، نحو الباب ويفتحه على مصراعيه) هنا ، تفضل ! ادخل السيد الكونت !

تولستوي : يدخل في جهد ، يقوده من اليمين دوشان ومن اليسار ابنته ساشا . لقد رفع الفرو فوق اذنيه ولف شالا حول عنقه . ومع ذلك يلاحظ المرء ان الجسم المسدثر كله يرتعد ويرتعش من البرد . يتبعه خمسة او ستة اشخاص) .

ناظر المحطة : (للداخلين) ابقوا في الخارج !

أصوات : دعنا ... فما نريد الا مساعدة ليو نيكولايفتش ... ربما شيء من الكونياك او الشاي ...

ناظر المحطة : (في اهتياج) لا يجوز الدخول لاي واحد منكم . (يدفعهم الى الخارج بالقوة ويقفل الباب الزجاجي المؤدي الى افريز المحطة . ولكن المرء يلاحظ ، باستمرار ، وجوه جمع من الفضوليين تمر خلف الباب الزجاجي وتتطلع الى الداخل . يلتقط ناظر المحطة كرسيا بسرعة ويضعه قرب المائدة) . ألا تريد حضرتك ان تجلس للاستراحة قليلا ؟

تولستوي : لست حضرة ... الحمد لله ، لم أعد كذلك ... لقد انتهى ذلك ... انتهى !

(ينظر حوله في ارتباك ، فيلمح الناس خلف الباب الزجاجي) : ابعدوا ... ابعدوا الناس عني ... اود ان اكون وحيدا ... الناس دوما ... اريد ان اكون مرة وحدي ...

ساشا : (تسرع الى الباب الزجاجي وتستره بالمعاطف بسرعة) .

دوشان : (يتكلم في غضون ذلك مع الناظر بصوت منخفض) يجب علينا ان نحمله الى الفراش في الحال ، فقد اعترته في القطار فجاة حمى شديدة ، اكثر من اربعين درجة . اعتقد ان حالته خطرة . فهل يوجد في مكان قريب من هنا فندق ذو غرف مناسبة ؟

ناظر المحطة : لا ، مطلقا . ليس في استابوفو كلها فندق واحد .

دوشان : ولكن لا بد له من فراش ، فأنت ترى كيف يحم . ومن الممكن ان يغدو ذلك خطرا على حياته .

ناظر المحطة : انه لشرف عظيم ، طبعا بالنسبة لي ، ان اقدم غرفتي المجاورة هذه لليو تولستوي ... لكن ارجو المعذرة ... انها متواضعة وبسيطة جدا ... غرفة عملي ، واطئة ، وضيقة ... فكيف اجرؤ على ضيافة ليو تولستوي فيها ؟..

دوشان : لا بأس من ذلك ... يجب علينا اولا ان نحمله الى الفراش بأي ثمن . (لتولستوي الذي يجلس الى المائدة والبرد يقرقفه، وقد اعترته رجفة مباغتة) ان السيد ناظر المحطة قد تلطف بتقديم غرفته لنا . فعليك بالاستراحة الان وغدا ستستعيد نشاطك ، فنواصل سفرنا .

تولستوي : نواصل سفرنا ؟.. لا ، لا ، اعتقد اني لن اواصل سفري ... هذه سفرتي الاخيرة ، فقد بلغت الهدف .

دوشان : (مشجعا) لا تهتم بهذه الحمى ، فلا خطر منها . لقد أصبت بزكام قليل . غدا تستعيد صحتك التامة .

تولستوي : اني الان أتمتع بصحة جيدة ... تماما ، صحتي جيدة ... ان ليلة الامس كانت رهيبة ، فقد خشيت ان يتبعوني من البيت ، أن يدركوني ويعيدوني الى ذلك الجحيم ... عندها قمت من نومي وايقظتكم ، فقد هزني الخوف هزا عنيفا . ولم يتخل عني طوال الطريق ، هذا الخوف ، هذه الحمى ، فكانت اسناني تصطك ... ولكني الان ، منذ ان وصلت الى هنا ... انما اين انا الان في الحقيقة ؟.. لم أر قط هذا المكان ... لقد تغير الان كل شيء دفعة واحدة ... لم أعد اشعر بخوف ... أعتقد أنهم لن يدركوني ...

دوشان : أكيد لا ، أكيد لا . تستطيع ان تنام في هدوء وطمأنينة ، فلن يجدك احد هنا .

(يساعد الاثنان تولستوي على الوقوف)

ناظر المحطة : (يقبل عليه) معذرة ... لم يكن في وسعي ان اقدم لك غير هذه الغرفة المتواضعة ... غرفتي الوحيدة ... لعل الفراش غير مريح ايضا ... سرير حديد لا اكثر ... لكني سأحضر كل شيء ، سأرسل في الحين برقية لجلب فراش اخر بالقطار التالي..

تولستوي : كلا ، كلا ، لا اريد شيئا اخر ... مدة طويلة ، كانت حياتي ، مدة طويلة ، احسن من حياة الاخرين ! وكلما كان ذلك رديئا ، كان احسن بالنسبة لي ! فكيف يموت الفلاحون اذن ؟.. مع ذلك فانهم يموتون ميتة طيبة ايضا ...

ساشا : (مستمرة في مساعدتها له) تعال يا أبت ، تعال ، فأنت تعب .

تولستوي : (يتوقف مرة اخرى) لا ادري ... اني تعب ، انت

على صواب ، فالبرد يقرقف اوصالي كلها ، انا تعب جدا ، مع ذلك اتوقع شيئا .. ان حالي لا يشبه حال من يكون نعسانا ، ولكنه لا يستطيع ان ينام ، لانه يفكر في شيء عظيم مقبل عليه ، ولا يريد ان يحرمه النوم من افكاره ... الغريب اني لم أعش مشاعر اللحظة قط ... قد يكون هذا شيئا من الموت . في السنوات الكثيرة الماضية كنت ، كما تعلمان ، اخاف الموت خوفا جعلني لا استطيع النوم في فراشي ، فكنت اخاف ان اصرخ كحيوان ثم اختفي . والان ، لعله هنا داخل الغرفة ، هو الموت ، ينتظرني . مع ذلك ، سأذهب لمقابلته من غير خوف . (ساشا ودوشان يساعدانه حتى الباب) .

تولستوي : يقف عند الباب وينظر الى الداخل) جميل ، هو هذا المكان ، جميل جدا ، صغير ، ضيق ، واطىء وفقير ... يخيل الي اني قد حلمت بهذا مرة ، فراش اجنبي كهذا ، في مكان ما في بيت اجنبي ، فراش ينام فيه ... رجل عجوز مجهد ... لحظة ، كيف كان يدعى ، هو الرجل العجوز ؟.. ذلك الذي كان مرة ثريا جدا ، ثم يعود فقيرا جدا ، ولا احد يعرفه ، فيتسلل الى فراش قرب الموقد ... آه من رأسي ، رأسي الغبي !.. كيف كان يدعى ، هو الرجل العجوز ؟.. هو الذي كان غنيا ثم لم يبق له سوى قميص يستر جسده ... والمرأة التي أغاظته ، أساءت اليه ، لم تكن عنده حينما يموت ... اجل ، اجل ، لقد عرفت ، عرفت . سميته آنئذ في قصتي كورني فاسلييف ، هو الرجل العجوز . ففي الليلة التي يموت فيها يوقظ الله قلب زوجته ، فتأتي ، هي مارفا ، لتراه مرة اخرى ، ولكنها تصل بعد فوات الاوان ، ويكون هو قد رقد ، في جمود ، فوق الفراش الاجنبي وعيناه مغمضتان ، ولا تدري هي ، هل انه لا يزال حانقا عليها ام قد غفر لها . انها لا تدري ، هي صوفيا اندرييفنا ... (كأنه مستيقظ) لا ، كان اسمها مارفا ... لقد اختلط الامر علي ... نعم ، اريد ان انام . (يقوده ساشا وناظر المحطة . تولستوي لناظر المحطة) اشكرك ، ايها الانسان الغريب ، على ضيافتك لي في بيتك ، على منحك اياي ما يمنح لحيوان في الغابة ... وقد ارسلني ، أنا كورني فاسلييف ، الله اليك ... (فجأة في فزع تام) اقفلوا الباب جيدا ، لا تدعوا احدا يدخل الي ، فلست اريد رؤية الناس بعد ... اريد ان اكون معه وحدي فقط ، أحب أن تكون علاقتي به اعمق من اي وقت مضى في حياتي . (ساشا ودوشان يقودانه الى مكان النوم . يغلق ناظر المحطة الباب خلفهم في حذر ويقف مشدوها) .

(طرق شديد في الباب الزجاجي من الخارج . يفتح ناظر المحطة الباب ، فيدخل رئيس الشرطة مسرعا) .

رئيس الشرطة : ماذا قال لك ؟ يجب ان انقل الاخبار في الحال ، يجب ان انقل كل شيء ! هل يريد بالتالي ان يبقى هنا ، وما هي المدة ؟

ناظر المحطة : لا يعرف هذا لا هو ولا اي واحد آخر . علم ذلك عند الله وحده !

رئيس الشرطة : ولكن كيف جاز لك ان تسكنه في بناية حكومية ؟ انها سكناك ومحل عملك . فلا يجوز لك ان تقدمها لغريب ؟

ناظر المحطة : ان ليو تولستوي ليس غريبا عن قلبي ، ولا أغ اقرب الي منه .

رئيس الشرطة : كان واجبك ان تسأل أولا .

ناظر المحطة : لقد سألت ضميري .

رئيس الشرطة : اذن فأنت المسؤول عن ذلك . وسأرسل الخبر في الحين ... يا للفظاعة ! اية مسؤولية تقع على عاتق المرء فجأة . فلو عرف المرء على الاقل موقف الدوائر العليا من ليو تولستوي ...

ناظر المحطة : (بهدوء تام) اعتقد ان المقام الاعلى الحقيقي كان يريد دوما صالح تولستوي ...

رئيس الشرطة : (ينظر اليه في دهشة) .

(يخرج دوشان وساشا من الغرفة ويغلقان الباب في حذر) .

رئيس الشرطة : (يبتعد مسرعا) .

ناظر المحطة : كيف تركت السيد الكونت ؟

دوشان : لقد نام بكل هدوء . لم أر في حياتي قط وجها اهدأ . سيجد هنا اخيرا كل ما حسده عليه الناس : السلام والهدوء والطمأنينة . انه لاول مرة وحده مع الهه .

ناظر المحطة : اعذرني انا الانسان البسيط ، فان قلبي ليرتعد ولا استطيع ان ادرك كيف قدر الله ان يسلط عليه كل هذا العذاب ، بحيث اضطر ليو تولستوي الى الهروب من بيته ليموت هنا على فراشي الفقير الحقير ... كيف استطاع الناس ، ناس روسيا ، ان يزعجوا نفسا كبيرة كهذه ، كيف امكنهم ان يحبوا آخر يهابه ويخشاه ؟

دوشان : ان اولئك الذين يحبون رجلا عظيما يحولون هم انفسهم بينه وبين واجبه ورسالته ، اما اولئك الذين يعدون اقرب الناس اليه ، فان عليه ان يهرب منهم ويبتعد عنهم ما أمكنه الهروب والابتعاد . لقد حدث ما حدث بصورة مناسبة : هذا الموت سيمنح حياته الكمال والقداسة .

ناظر المحطة : رغم ذلك ... فان قلبي لا يستطيع ولا يريد ادراك معنى أن يتعذب هذا الانسان ، كنز أرضنا الروسية ، بسببنا نحن البشر ، بينما نحن انفسنا نعيش ساعاتنا في هناء ... يجب على الواحد منا ان يخجل من نفسه الخاص ...

دوشان : لا تحزن عليه ، أنت ايها الرجل العزيز الطيب ، فلولا ذلك لما كان القدر التعب الوضيع مناسبا لعظمته . فلو لم يتعذب من اجلنا نحن البشر لما أصبح ابدا ليو تولستوي الذي هو للانسانية اليوم .

ترجمها عن الالمانية **ابو العيد دودو**

صدر حديثا :

السعر

ديوان امير المؤمنين الامام علي قليه السلام ١٥٠ ق.ل

علي والقرآن ١٠٠ ق.ل

اصل الشيعة واصولها ٢٠٠ ق.ل

تطلب هذه الكتب من الشركة الحديثة للطباعة والنشر

ص. ب ٤٠٥٤ بيروت ، لبنان